

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٣ - سُورَةُ الْعَصْرِ

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ثلاث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالْعَصْرِ)

[٢] (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ)

[٣] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ)

« وَالْعَصْرِ » أى الدهر . أقسم تعالى به لانطوائه على تعاجيب الأمور القارة والمارة . ولذا قيل له (أبو العجب) . ولأنه يذكر بما فيه من النعم وأضدادها . فينبه الإنسان على أنه مستعد للخسران والسعادة . وللتنويه به والتعظيم من شأنه ، تعريضاً ببراءته مما يضاف إليه من الخسران والذم . كما قيل :

يَعْبُونَ الزَّمانَ وليسَ فِيهِ مَعايِبُ غيرَ أَهْلِ الزَّمانِ

وجوّز أن يراد بالعصر ، الوقت المعروف الذى تجب فيه صلاة العصر .

قال الإمام : كان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحدّثوا ويتذاكروا فى شؤونهم . وقد يكون فى حديثهم ما لا يليق أو ما يؤذى به بعضهم بعضاً . فيتوهم الناس أن الوقت مذموم . فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان فى نفسه ليس مما يذم ويسبّ ، كما اعتاد الناس أن يقولوا (زمان مشؤوم) و (وقت نحس) و (دهر سوء) وما يشبه ذلك . بل هو عادّ للحسنات كما هو عادّ للسيئات . وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع . فكيف يذم فى ذاته ، وإنما قد يذم ما يقع فيه من الأفاعيل المعقّوة . « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ » أى خسران ، لخسارته رأس ماله الذى هو نور الفطرة والهداية الأصلية ، بإيثار الحياة الدنيا واللذات الفانية والاحتجاب بها وبالدهر ، وإضاعة الباقي فى الفانى « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله وبما أنزل من الحق ، إيماناً ملك إرادتهم

فلا يعملون إلا ما يوافق اعتقاداتهم . كما قال « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » قال القاشاني : أى من الفضائل والخيرات . أى اكتسبوها فربحوا زيادة النور السكالي على النور الاستعدادي الذي هو رأس ملهم .

« وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ » أى أوصى بعضهم بعضاً بما أنزل الله في كتابه من أمره ، واجتنب ما نهى عنه من معاصيه « وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » أى على ما يبلى الله به عباده . أو على الحق ، فإن الوصول إلى الحق سهل . وأما البقاء عليه والصبر معه بالاستقامة والجهاد لأجله ، فذلك الذي يظهر به مصداق الإيمان وحقيقته .

تنبيهات

الأول - قال الإمام ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) قال الشافعي رضي الله عنه : لو فكر الناس كلهم في هذه السورة ، لكفهم . وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله . إحداها معرفة الحق . الثانية عمله به . الثالثة تعليمه من لا يحسنه . الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه . فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة . وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر ، إلا الذين آمنوا . وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به ، فهذه مرتبة . وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرى . وتواصوا بالحق ، وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً ، فهذه مرتبة ثالثة . وتواصوا بالصبر ، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات . فهذه مرتبة رابعة . وهذا نهاية الكمال . فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه ، مكملاً لغيره . وكماله بإصلاح قوته العلمية والعملية . فصلاح القوة العلمية بالإيمان . وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات . وتكميله غيره ، بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل . فهذه السورة ، على اختصارها ، هي من أجمع سور القرآن للخير بمخذافيه . والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه ، شافياً من كل داء ، هادياً إلى كل خير . انتهى .

الثاني : قال الرازيّ : هذه السورة فيها وعيد شديد . وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس ، إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة . وهي : الإيمان . والعمل الصالح . والتواصي بالحق . والتواصي بالصبر . فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور . وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فكذلك يلزمه في غيره أمور . منها الدعاء إلى الدين . والنصيحة . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأن يحب له ما يحب لنفسه . ثم كرر التواصي ليعتد به الأول الدعاء إلى الله ، والثاني الثبات عليه . والأول الأمر بالمعروف ، والثاني النهي عن المنكر . ومنه قوله تعالى ^(١) (وَأَنَّهُ عَنِ الْمُسْكِرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ) وقال عمر : رحم الله من أهدى إلى عيوني .

الثالث : قال الرازيّ : دلت الآية على أن الحق ثقیل ، وأن الحق تلازمه . فلذلك قرن التواصي بالصبر .

الرابع : تخصيص التواصي بالحق والصبر ، مع اندراجهما في الأعمال الصالحة ، لإبراز كمال الاعتناء بهما .

قال الإمام : من تلك الأعمال الدعوة إلى الحق والوصية بالصبر . لكنه أراد تخصيص هذين الأمرين بالذكر ، لأنهما حفاظ كل خير ورأس كل أمر . والحق هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة . وهو ما أرشد إليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة . فشرط النجاة من الخسران ، أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويمكّنوه من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضاً عليه ، بأن يدعو كل صاحب به إلى الاعتقاد بالحقائق الثابتة ، التي لا ينافع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل . وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات ، التي لا قرارة للنفوس عليها ، ولا دليل يهدي إليها . ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر وإجادة النظر في الأكوان ، حتى تستطیع النفس دفع ما يرد عليها من باطل الأوهام . وهذا إطلاق للعقل من كل قيد ، مع اشتراط التدقيق في النظر . لا الذهاب مع الطيش والانخداع . (١) [٢١ / لقمان / ١٧] .

للمادة والوهم . ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه فهو من الخاسرين . كما ترى في الآية بالنص الصريح الذي لا يقبل التأويل . والصبر قوة للنفس على احتمال المشقة في العمل الطيب ، واحتمال المكروه من الحرمان من اللذة ، إن كان في نيلها ما يخالف حقاً أو ما لا تأذن به الشريعة الصحيحة التي لا اختلاف فيها . واحتمال الآلام إذا عرضت المصائب بدون جزع ولا خروج في دفعها عن حدود الحق والشرع . فشرط النجاة من الخسران أن تصبر ، وأن توصي غيرك بالصبر ، وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة ، التي هي أم الفضائل بأمرها ، ولا يمكنك حملها على ذلك ، حتى تكون بنفسك متحلياً بها . وإلا دخلت فيمن يقول ، ولا يفعل كما يقول . فلم تكن ممن يعمل الصالحات . انتهى .

الخامس - قال الإمام: إنما قال (وَتَوَاصَوْا) ولم يقل (وأوصوا) ليبين أن النجاة من الخسران إنما تنافى بمحرص كل من أفراد الأمة على الحق ، ونزوع كل منهم إلى (أن يوصى به قومه ومن يهيم أمر الحق ، ليوصى صاحبه بطلبه ، يهيم أن يرى الحق فيقبله . فكان في هذه العبارة الجزلة ، قد نص على توأصيهم بالحق وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم .

السادس - قال ابن كثير : ذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله ابن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ ، إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها . ثم يسلم أحدهما على الآخر . قال الإمام : قد ظن الناس أن ذلك كان للتبرك . وهو خطأ . وإنما كان ليذكر كل واحد منهما صاحبه بما ورد فيها . خصوصاً من التواصي بالحق والتواصي بالصبر . حتى يجتلب منه قبل التفرق ، وصية خير لو كانت عنده .

وقد فسر الإمام رحمه الله هذه السورة بتفسير على حدة لم يسبق إلى نظيره ، فعلى من أراد التوسع في أسرارها ، أن يرجع إليه .